

القومية والدينية نلمح أيضاً تجسداً لإشكالية الهوية التي ظلت الأندلس مسرحاً لها في تاريخ التلاقح الحضاري بين العرب المسلمين والأوروبيين المسيحيين، فإذا كان الأوروبيون قد سعوا إلى أوربة آخر المؤلفين العرب فإن منهم من سعى أيضاً إلى أوربة الأندلس وإلغاء إرثها العربي. ولكن مثلما أن ليو الأفريقي عاد - كما يقال - إلى شمال أفريقيا ومات مسلماً، فإن الأندلس لم تتخل تماماً عن إرثها العربي الإسلامي، وكان من الأوروبيين من لم ينكر ذلك الإرث، بل أكدته، وإن رأى فيه إشكالية كبرى من إشكاليات الانتماء، انتماء الأندلس إلى أوروبا ، وأوروبا إلى الأندلس.

الكاتب الأسباني الشهير سرفانتيس كان أحد أولئك الأوروبيين الذين أدركوا عروبة الأندلس وأكدوها، ثم سعوا في الوقت ذاته إلى بعث أو تنشيط هويتها الأخرى، الهوية المسيحية الأوروبية. وكان من المفارقات أن يعيش سرفانتيس نفسه تجربة مشابهة إلى حد ما لتجربة الحسن الفاسي، ولكن في الاتجاه المعاكس. فبعد اختطاف الفاسي إلى إيطاليا بنصف قرن اختطف قراصنة آخرون مؤلف دون كيهوته ليقتضيه في الجزائر خمسة أعوام من الأسر والعبودية. بيد أن سرفانتيس على عكس نظيره العربي لم يضطر لاعتناق الإسلام ولا لتغيير اسمه. لكنه من ناحية رأى في معاناته من الأسر والعبودية تجسداً حياً لما كان المغاربة، أو الموريسكيون، يعانونه في الأندلس، ثم أدرك من ناحية أخرى أن نفي أولئك المغاربة أو تنصيرهم لم يكن ليؤدي إلى نفي الثقافة العربية - الإسلامية من أسبانيا. في دون كيهوته، التي بدأ يكتبها بعد عودته من الأسر بعشرين عاماً، تنعكس إشكالية الوجود العربي - الإسلامي في أسبانيا عامة والأندلس خاصة، وهي الإشكالية التي خبرها الكاتب قبل الأسر، ثم جاء الأسر فيما يبدو ليزيدها عمقاً وفاعلية. ولعل نسبة سرفانتيس قصته الشهيرة لمؤلف عربي من أبلغ الدلالات على وعي الكاتب بالإشكالية المشار إليها.

فيما تلا من عصور الآداب الأوروبية انعكست تجربتنا الحسن الفاسي أو ليو الأفريقي وسرفانتيس في أعمال اثنين من أهم الشعراء، أحدهما الشاعر الإنجليزي الرومانتيكي وليم وردزورث، والآخر الأيرلندي الحديث وليم بتلر بيتس. استعاد بيتس تجربة ليو الأفريقي، وفعل وردزورث شيئاً مشابهاً مع العرب من خلال تجربة سرفانتيس، وكانت الاستعادتان من زوايا مختلفة بالطبع، ولكنهما تمحورتا حول